

الفلسفة السياسية لتوماس هوبز قراءة معاصرة لأهم افكاره السياسية

م. احسان عبدالهادي سلمان

مدرس العلوم السياسية

كلية القانون والسياسة- جامعة السليمانية

المخلص

شهدت أوروبا في العقود الأولى من القرن السابع عشر، عملية تدريجية لتحرير الفلسفة السياسية من الارتباط باللاهوت، واضفاء الطابع العلماني على الاهتمامات الفكرية. وظهرت فكرة العصر الطبيعي من جديد، كفكرة افتراضية هدفها تأكيد حرية ومساواة الأفراد وارجاع السلطة الى اصل شعبي، واتخذت هذه الفكرة اتجاهين، اتجاه متفائل، والذي ينطلق من ان العصر الطبيعي امتاز بالبساطة والفضيلة، والانسان كان يعيش في سعادة، وان قيام الدولة قضى على هذه السعادة. بينما الاتجاه المتشائم، يعتبر ان حياة الغاب هي التي سادت المجتمع الطبيعي وان تكوين الدولة قضى على هذه المساوى بايجاد القوانين المنظمة لحياة الافراد. ثم جاءت فكرة العقد، والتي هي امتداد لفكرة العصر الطبيعي، لتفسير ظاهرة الدولة والسلطة فيها. جاء هوبز بنظريته في العقد الاجتماعي، ليضيف إسهاماً جديداً في الفكر السياسي. وفي كتابه (الليفياتان) جسّد افكاره السياسية في الدولة التي تحمي الضعفاء من اعتداء الاقوياء والمنظمات الوسيطة. وجاءت فرضية البحث بان هوبز حامل لواء الفردية والاطلاقية، لكنه دافع عن نظام الحكم المطلق مستنداً الى نظرية القانون الطبيعي والعقد الاجتماعي وليس على نظرية الحق الالهي. كما جاءت هذه الدراسة لتوضح البناء الفلسفي والفكري لهوبز، في تفسير نظرية العقد وكيفية اقامة الحكم المطلق على اساس منفعة الافراد مبيناً التسلسل المنطقي لنظريته التي تعتمد على السببية والمنهج التحليلي والاستنتاجات النهائية التي توصل اليها.

المقدمة

شهدت أوروبا في العقود الأولى من القرن السابع عشر، عملية تدريجية لتحرير الفلسفة السياسية من الارتباط باللاهوت، وازدحام الطابع العلماني على الاهتمامات الفكرية. وظهرت فكرة العصر الطبيعي من جديد، كفكرة افتراضية هدفها تأكيد حرية ومساواة الأفراد وارجاع السلطة الى اصل شعبي، واتخذت هذه الفكرة اتجاهين، اتجاه متفائل، والذي ينطلق من ان العصر الطبيعي امتاز بالبساطة والفضيلة، والانسان كان يعيش في سعادة، وان قيام الدولة قضى على هذه السعادة. بينما الاتجاه المتشائم، يعتبر ان حياة الغاب هي التي سادت المجتمع الطبيعي وان تكوين الدولة قضى على هذه المساوى بايجاد القوانين المنظمة لحياة الافراد. ثم جاءت فكرة العقد، والتي هي امتداد لفكرة العصر الطبيعي، لتفسير ظاهرة الدولة والسلطة فيها. جاء هوبز بنظريته في العقد الاجتماعي، ليضيف إسهاماً جديداً في الفكر السياسي. وفي كتابه (الليفياثان) جسّد افكاره السياسية في الدولة التي تحمي الضعفاء من اعتداء الاقوياء والمنظمات الوسيطة. وجاءت فرضية البحث بان هوبز حامل لواء الفردية والاطلاقية، لكنه دافع عن نظام الحكم المطلق مستنداً الى نظرية القانون الطبيعي والعقد الاجتماعي وليس على نظرية الحق الالهي. كما جاءت هذه الدراسة لتوضح البناء الفلسفي والفكري لهوبز، في تفسير نظرية العقد وكيفية اقامة الحكم المطلق على اساس منفعة الافراد مبيناً التسلسل المنطقي لنظريته التي تعتمد على السببية والمنهج التحليلي والاستنتاجات النهائية التي توصل اليها.

واعتمدنا في هذه الدراسة على المنهج التاريخي من اجل رصد الواقع الذي عاش فيه هذا الفيلسوف، والذي اثر على اتجاهاته الفكرية، ثم اعتمدنا المنهج الوصفي لبيان وتوضيح الظواهر السياسية التي عالجها هوبز في نظريته، وبعد ذلك انتقلنا الى منهج التحليلي للوقوف على اهم الافكار والاستنتاجات التي جاءت بها نظريته.

احتوت الدراسة على مقدمة ومبحثين، مهدنا لهما بتوطئة قصيرة تضمنت إستعراضاً موجزاً لظروف بلده ومجتمعه، وسيرة حياته وتطوره الفكري، وكرسنا المبحث الأول لبيان منهجه والاساس الفلسفي لنظريته، اما المبحث الثاني فتناولنا

فيه فلسفته وتحليل الحكم، وأدرجنا في خاتمة البحث أبرز ما تم التوصل اليه من نتائج.

توطئة

ظروف مجتمعه وسيرة حياته

كان للعوامل الاجتماعية والاقتصادية والظروف السياسية التي أحاطت بحياة هوبز منذ ولادته حتى وفاته، الأثر الكبير في تحديد طبيعته واتجاهاته الفكرية. فالقرن السابع عشر تميز بالحروب والثورات الداخلية، وصراعات اقتصادية، فضلاً عن التنافر المذهبي. فقد شهدت انكلترا في نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر، مرحلة من توتر العلاقات مع اسبانيا وفرنسا، اثرت سلباً على واقع الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية فيها، وذلك بسبب الانقسام الديني بين البروتستانت والكاثوليك. كما كانت العلاقة متوترة بين انكلترا واسكتلندا بسبب محاولة الاولى ضم الثانية اليها بالقوة. هذا الأمر جعل من انكلترا (حامية البروتستانت) ان تقف بمواجهة فرنسا واسبانيا (حماة الكاثوليك)، مما ادى الى توتر العلاقات الخارجية الانكليزية في القارة الاوربية.^١ وعلى اساس ذلك ظهر التحالف الفرنسي- الاسباني ووجه جهوده للقضاء على البروتستانتية في انكلترا. وتوجه الاسطول الاسباني الكبير (الارمادا) نحو انكلترا لاختضاعها، لكن بسبب تضافر جهود الانكليز ومهارة بحارتهم وهبوب عاصفة بحرية قوية تحطم الاسطول الاسباني.^٢ وبعد ذلك انشغلت انكلترا في صراعات داخلية (دينية ومذهبية) بين جماعات متطرفة من البروتستانت الكالفينيين (البيوريتان) وبين المعتدلين (الانكليكان). فقد طالب البيوريتان بالحقوق البرلمانية في مواجهة الملكية، واقحموا الدين في الامور السياسية، مما ادى الى نشوب الحرب الاهلية.^٣

^١ محمد محمد صالح، تاريخ اوربا من عصر النهضة حتى الثورة الفرنسية، مطبعة الجاحظ، بغداد، ١٩٨١، ص ٢٦٤.

^٢ عبدالحليم عبدالرحمن، التاريخ الاوربي الحديث والمعاصر، دار الكتاب الجامعي، (بلا)، ١٩٨٦، ص ٩٢.

^٣ روبرت بالمر، معالم التاريخ الحديث، ج ١، ترجمة محمود حسين الامين، مؤسسة فرانكلين، بغداد-نيويورك، ١٩٦٤، ص ٢٥٣.

اما على الصعيد الاوربي، فقد كانت تحت تأثير الحرب الدينية، ففي فرنسا كانت الحرب بين البروتستانت والكاثوليك ، وهولندا (الكالفنية) دخلت في حرب مع اسبانيا (الكاثوليكية)، فضلا عن اندلاع حرب الثلاثين عاما الدينية (١٦١٨-١٦٤٨) لتشمل معظم بلدان اوربا.^٤

من خلال ذلك يمكننا القول ان ما شهدته اوربا بشكل عام من حروب دينية وتطاحن مذهبي وانكلترا بشكل خاص من جراء تداخل الخارطة الاجتماعية والاقتصادية والدينية مع الخارطة السياسية، كان له الأثر الكبير في حياة وتفكير المجتمع آنذاك. هذه الاحداث الفت بظلالها على فلاسفة ذلك العصر، والفيلسوف كغيره من رجال الفكر، نسيج وحده، كيانه يعتمد على طريقته الخاصة للتجاوب مع ظروف بيئته الاجتماعية والطبيعية. وإذا صدق هذا على رجال الفكر بعامة، فإنه من باب اولي ان يصدق على الفلاسفة ومن بينهم توماس هوبز.

ولد هوبز في ١٥٨٨/٤/٥ في (ويست بورت) المجاورة لمدينة (مالسبوروي) في مقاطعة (ولتشاير) الانكليزية.^٥ وقد صادف قبل ولادته توجه (الارمادا) نحو انكلترا ، وفي هذا الجو الحربي المتوتر سيطر الخوف على والدته التي كانت حاملا به فوضعت قبل آوانه (كان وليداً لسبعة اشهر) مما دفعه فيما بعد ان يردد عبارته الشهيرة "أنا والخوف توأمان".^٦ في صغره تلقى دروسا في الاغريقية واللاتينية واصبحت له معرفة وافية بالكلاسيكيات (الادب والتاريخ) ثم اكمل دراسته في جامعة اوكسفورد عام ١٦٠٨.^٧ بعدها اصبح معلما خاصا لوليم كافندش (ايرل نيوكاسل) وأثمرت علاقته مع هذه الاسرة الاميرية حتى آخر عمره، وبصحة هذه الاسرة سافر الى اوربا ليتعرف على علماء ومفكري عصره امثال (كيبيلر) و (غاليلو) و (بيكون) وان يطلع على اهم انجازات ذلك العصر.^٨

^٤ جلال يحيى، معالم التاريخ الحديث، منشأة المعارف، الاسكندرية، ١٩٧٦، ص٩.

^٥ نبيل عنداحميد عبدالجبار، توماس هوبز ومذهبه في الاخلاق والسياسة، دار دجلة، عمان، ٢٠٠٧، ص٢٣.

^٦ موسى ابراهيم، معالم الفكر السياسي الحديث والمعاصر، مؤسسة عزالدين، بيروت، ١٩٩٤، ص٨٧.

^٧ عبدالرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، ج٢، مؤسسة ذو القربى، ايران، ٢٠٠٦، ص٥٥٤.

^٨ عبدالمنعم الحفني، موسوعة الفلسفة والفلاسفة، ج٢، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٩، ص١٤٨١.

وفي احدى رحلاته الى فرنسا وسويسرا عام ١٦٢٩، والتي مثلت له انعطافة مهمة في تطوره الفكري، اذ تحول اهتمامه من دراسة الكلاسيكيات الى الفلسفة، بعد اطلاعه على كتاب (الاصول) الذي ألفه (اوقليدس) وقد الهتمته الطريقة الاستنتاجية التي عرض فيها اوقليدس افكاره، و اراد تطبيقها على شتى مجالات المعرفة. وفي عام ١٦٣٧، اختمرت في ذهنه فكرة صياغة نظام فلسفي متكامل يعالج فيه (الجسم المادي) و (الجسم الانساني) و (الجسم المركب) او المصطنع (الدولة). ونشر كتابه (مبادئ القانون الطبيعي والسياسي) عام ١٦٤٠، تبعها عام ١٦٥٠ بكتابين، الأول بعنوان (الطبيعة الانسانية) او (المبادئ الاساسية للسياسة) والثاني بعنوان (الهيئة السياسية)، ويمثل الكتاب الأخير مخططا لنظريته ومحاولة منسقة لإستخدام الطريقة الهندسية وعلم النفس الميكانيكي في عرض الحقائق الكامنة وراء الخلافات الناشئة آنذاك^٩. وبعد ذلك استمر بمتابعة مخططه الفلسفي وبلورة آرائه السياسية كي ينجز رائعته الكبرى ، التنتين او الوحش (Leviathan). ويعد هذا الكتاب أهم واعظم ماكتبه، من حيث انه يمثل ذروة افكاره ومعتقداته، كما ان هذا الكتاب يتصل بالمرحلة التاريخية التي ظهر اثنائها، وساهم بشكل فعال في حل المشكلات التي كانت قائمة آنذاك، وما يتعلق بطبيعة الحكم^{١٠}. وفي أواخر حياته عاد لدراسة الكلاسيكيات، فترجم عام ١٦٧٣ (الاوديسا) ثم نشر عام ١٦٧٦ ترجمته (للألياذة)، وقضى عامه الأخير يشعر بأنه في حاجة للمزيد من العلم والمعرفة ، وقد وعد احد الناشرين بتزويده بشيء للنشر، لكنه توفي في ١٦٧٩/١٢/٤ عن عمر واحد وتسعين عام^{١١}.

^٩ بيير فرانسوا مورو، هوبز (فلسفة، علم، دين) ترجمة اسامة الحاج، المؤسسة الجامعية، بيروت، ٢٠٠٧، ص ١٥٥ .

^{١٠} عبدالرحمن بدوي، المصدر ، السابق، ص ٥٥٥ .

^{١١} نبيل عبدالحميد، المصدر السابق، ص ٥٣ .

المبحث الأول

منهجه والاساس الفلسفي لنظريته

قدم هوبز فلسفته السياسية بصورة موضوعية بقصد وضع الفلسفة الأخلاقية والسياسية على أساس علمي. والمساهمة في تأسيس سلام مدني ومودة، وفي إعداد البشرية للايفاء بواجباتها المدنية. وبهذا أراد إن يكون (أوقليدس علم السياسة) أي انه يصل فيها إلى يقين الرياضيات. وطبقاً لهذه الاعتقادات أوصى بان تقرر كتبه في الجامعات لانها معتمدة وموثوقة، لذا يمكن القول بانه الفيلسوف السياسي الحقيقي الأول.^{١٢}

المطلب الأول

منهجه

هناك عوامل ومؤثرات معينة أدت في توجيه اهتمام هوبز نحو الفلسفة، ومن ثم بلورة اتجاهه الفلسفي، اولها اطلاعه على كتاب (الاصول) لأوقليدس، واعجابه الشديد بالمنهج الذي اتبعه، والطريقة الاستنتاجية التي اتبعها، ودقتها ووضوح الافكار التي عرضها. وثانيها، اطلاعه على الانجازات التي حققها غاليلو في مجال الفلسفة الطبيعية، والتي جاءت مصداقاً للمنهج التحليلي-التركيبى الذي اتبعه هوبز ومعالجة الاخلاق بطريقة هندسية. وحدد هوبز مفهومه للمنهج بالاستناد إلى مفهومه للفلسفة، اذ يعرف الفلسفة بانها "المعرفة بالظواهر، أو بالنتائج والآثار الظاهرة، والتي نتوصل إليها عن طريق الاستنتاج الصحيح، مما نعرفه عن أسبابها ومنشئها، أو هي المعرفة بأسبابها ومنشئها، استنتاجاً مما نعرفه عن نتائجها وآثارها"^{١٣} ووفقاً لذلك يعرف المنهج بانه: "اقصر طريق للعثور على المعلومات بواسطة عللها المعروفة، أو العثور على العلل بواسطة معلولاتها

^{١٢} ليوشتراوس وجوزيف كروس، تاريخ الفلسفة السياسية، ج١، ترجمة محمود السيد احمد، المجلس الاعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥،

ص٥٧٣

^{١٣} نبيل عبدالحميد، المصدر السابق، ص٥٧-٥٩.

المعروفة^{١٤}. واقر بوجود نوعين من المنهج يناظران عمليتي الجمع والطرح: الاول، تركيبى، وبه نستطيع أن ننقل من المبادئ الأولى (التعريفات) إلى معرفة شيء مركب. والثاني، تحليلي، وبه نصل إلى فهم الشيء بتحليل الفكرة إلى الكليات التي تتألف منها، والتي أسبابها واضحة ومتجسدة في مبادئ اولى. ولتوضيح مقصد هوبز من هذا المنهج بنوعيه، نقول إن العلم بنية من المعارف المنظمة، نموذجها ونقطة ابتدائها علم الهندسة. اذ في الهندسة نبدأ من البديهيات (في نظر هوبز التعريفات)، وبعد ذلك نستنبط من هذه البديهيات (التعريفات)، أي اننا نجعلها بالمعنى الواسع (للجمع) كما يفهمها هوبز. والهندسة في نظره اشد واكثر علوم الحركة تجريباً لأنه يرى الخط مثلاً هو الطريق الذي تتخذة نقطة متحركة، وبما ان المادة في حالة حركة، فبمعرفة قوانين الحركة يكتمل علمنا من حيث المبادئ النظرية. إذن يوجد نوعان من المعرفة الأول؛ تتعلق بوجود الأشياء، وهذه تستمد من الادراك الحسي، أو التخيل، أو التذكر. والثاني؛ معرفة تتعلق باسباب وجود الأشياء، وهذه لا يمكن التوصل إليها أو اكتشافها إلا عن طريق الاستنتاج، والذي قوامه التركيب والتحليل. وعليه فما من منهج يمكن أن تكتشف بواسطته أسباب الأشياء، إلا ويكون اما تركيبيا، أو تحليليا، أو يجمع بينهما. وعلى اساس هذين العنصرين (التحليل والتركيب) يميز هوبز بين نوعين من المنهج وهما، منهج الاكتشاف، ومنهج البرهان، أو التعليم.^{١٥} أولاً: منهج (الاكتشاف)، يستخدم في اكتشاف الأسباب ونتائجها، سواء في مجال الفلسفة الطبيعية أو الفلسفة المدنية (الاخلاق والسياسة)، يتألف من خطوتين التحليل والتركيب. والتحليل؛ هو الانتقال من الجزئي إلى الكلي، أي البدء من الإحساس وصولاً إلى المبادئ الأولى التي تساعدنا على معرفة أسباب الاعراض والصفات التي على اساسها يميز جسم عن آخر. اما التركيب؛ هو الانتقال من الكليات إلى النتائج التي تترتب عليها. واستخدم المنهج التركيبى، في وضع نظام فلسفي استنتاجي على اعتبار (الحركة اساس الاشكال المتنوعة التي تبدو بها الأشياء، والسبب الفاعل لكل الظواهر التي تحدث في الكون). لينتقل إلى مجال الفلسفة المدنية، بدراسة حركات العقل – أي

^{١٤} عبدالمنعم الحنفي، موسوعة الفلسفة والفلاسفة، ج ٢، ط ٢، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٩.

^{١٥} عبدالرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، ج ٢، مؤسسة ذو القرنى، ايران، ٢٠٠٦.

الانفعالات كالخير والحب والنفور... الخ، لمعرفة أسبابها ونتائجها – وهذه تؤلف موضوع الفلسفة الاخلاقية والاساس الذي تقوم عليه الفلسفة السياسية. ثانياً: منهج البرهان (أو التعليم)، يستخدم في نقل ما توصلنا اليه من اكتشافات ونتائج إلى الغير، أي تعليمه اياها، والبرهنة على صوابها، بنفس الطريقة التي توصلنا بها إليها، أي إن منهج البرهان هو منهج تركيبى يبدأ من القضايا الاولية أو العامة، والتي تكون واضحة بذاتها، ويتواصل في تركيب القضايا على هيئة قياس، حتى يمكن للمتعلم في نهاية الأمر، معرفة صدق النتيجة المطلوبة. اما المبادئ (التعريفات) فهي مجموعة من الألفاظ يتم بواسطتها نقل فكرة ما عن شيء معين للسامع. ويكون للتعريف خصائص وشروط محددة بحيث يقوم التعريف بازالة الالتباس والغموض وتحديد الاسم المعرف واعطاء فكرة واضحة عنه.^{١٦}

وبذلك يمكننا القول، إن هوبز حدد مهمة الفلسفة في استنتاج المعرفة بالظواهر ونتائج الأشياء، من ما هو معروف عن أسبابها ومنشئها، أو استنتاج أسبابها ومنشئها من ما هو معروف عن نتائجها وآثارها. وبعبارة أخرى إن مهمة الفلسفة هي معرفة نشوء الأشياء وكيفية حدوثها، وهذا يعني إن موضوع بحثها يقتصر على الأشياء والاجسام الحادثة (كل جسم يمكننا إن نتصور كيفية حدوثه ونشوءه، يكون قابلاً للتركيب والتحليل).

وقد ميز هوبز ثلاثة أنواع من الأشياء الحادثة أو التي يمكن تصور كيفية حدوثها، ويمثل كل منها موضوع جزء أو قسم معين من اقسام الفلسفة، وهي : الخطوط والاشكال الهندسية (وتمثل موضوع علم الهندسة)، والاجسام الطبيعية (وتمثل موضوع علم الفيزياء)، والكيانات السياسية (أي الدولة وبضمنها المجتمعات البشرية) والتي تمثل موضوع (الفلسفة المدنية).^{١٧} وتبعاً لذلك، فإن علم الهندسة قابل للبرهان، لان الخطوط والاشكال التي نبدأ التفكير منها، هي من رسمنا وتصويرنا، والفلسفة المدنية قابلة للبرهان، لأننا نحن الذين نقيم الدولة وننشئها. وجاء هذا الافتراض من اعتباره (الحركة Motion) السبب الفاعل لكل ما يوجد أو يحدث في الكون من ظواهر، بما في ذلك فعاليات الجسم الإنساني،

^{١٦} نبيل عبدالحميد، المصدر السابق، ص ٦٠-٦٢ .

^{١٧} المصدر نفسه، ص ٦٦-٦٧ .

وافعال الانسان ومظاهر سلوكه التي تتجلى في نهاية الأمر، في علاقاته مع غيره من البشر، وسعيه بالتعاون معهم إلى انشاء أو اقامة المجتمعات والدول. لأن المجتمعات والدول برأيه تنتج عن الحركات التي تجري في عقول افراد البشر، أي ما اصطلح على تسميته (بالانفعالات Passions)، وان معرفة أسباب هذه الحركات هي مبادئ الفلسفة المدنية.^{١٨}

وافترض إن المنهجية تقوم عندما يبدا الإنسان عن التساؤل فيما إذا كان الفعل الذي قام به عادلا أم جائرا، لان التساؤل يقوده إلى تحليل مفهوم الفعل الجائر ويرده إلى الواقع بصد القانون ثم يشرع بتحليل مفهوم القانون ويرده إلى اوامر الحاكم صاحب السلطة وبهذا يشرع بتحليل مفهوم السلطة الذي يردده إلى اتفاق ارادة الأفراد على نشؤها بغية العيش في ظلها بسلام وطمانينة،... الخ. وبهذا يوصل التحليل المتسلسل إلى الحقيقة التالية: "ان رغبات افراد البشر وشهواتهم وانفعالات عقولهم هي على نحو، بحيث انهم ما لم تكبحهم سلطة ما، سوف لن يكفوا عن محاربة بعضهم البعض، وهذا ما يمكن إن تؤكد خبره أي انسان".^{١٩}

لذلك يرى ان المنهج التحليلي مهم خاصة بالنسبة للفلسفة السياسية. ويدعو قارئه لأن يختبر صدق ما كتبه بأن ينظر في نفسه ومعرفة مواقفه ويعرفها في ضوء الانفعالات والميول الطبيعية، وبمعرفة الانفعالات والمواقف يمتلك القدرة في قراءة انفعالات الاشخاص الاخرين وافكارهم. ويرى وجوب فهم السلوك البشري عن طريق سيكولوجيا آلية عن الانفعالات، تلك القوى الموجودة في الانسان التي ان جاز التعبير تدفعه من الخلف. اي انه لا يجب ان يفهم السلوك البشري عن طريق تلك الاشياء التي يمكن تصورها تجذب الانسان من الامام، اي غايات الانسان، وما يسميها هوبز بموضوعات الانفعالات. فهذه الاخيرة تتنوع حسب تكوين الشخص وتربيته، ومن السهل جداً ان تختفي.^{٢٠}

^{١٨} ليوشتراوس و جوزيف كرويس، المصدر السابق، ص٥٧٤ .

^{١٩} نبيل عبدالحميد، المصدر السابق، ص٦٩ .

^{٢٠} ليوشتراوس و جوزيف كرويس، المصدر السابق، ص٥٧٦ .

المطلب الثاني

الأساس الفلسفي لنظريته

لقد اتبع هوبز في محاولته اكتشاف النتائج عن طريق اجراء تجربة عقلية (على غرار غاليليو) لتحليل المجتمع الى ابسط عناصره الاساسية، من حيث افراد البشر، والمبادئ التي تتحكم بسلوكهم من انفعالات ورغبات، وكذلك العوامل الخارجية التي تؤثر في سلوك الافراد او تتدخل في توجيهه ومساره مثل السلطة الحاكمة، القوانين، والاعراف،... الخ. ثم تناول الافراد كما لو كانوا منفصلين عن بعضهم، ودرس سلوكهم بمعزل عن تلك العوامل الخارجية. ومن خلال هذا التصور، توصل الى اكتشاف النتائج التي تترتب على المبادئ التي تتحكم بسلوك وحركة افراد البشر. وقد اتخذت هذه النتائج مجموعة من القواعد او القوانين يتم بموجبها اعادة تركيب المجتمع من جديد واسماها (قوانين الطبيعة)، والفلسفة المدنية التي تتولى دراسة الجسم الاصطناعي، او ما يسمى بالدولة والتي تنشأ من اجماع واردة واتفاق البشر. ولما كانت معرفة خصائص ومواصفات الدولة تتطلب برأيه، معرفة نزعات وعواطف البشر وانماط سلوكهم، وقسم الفلسفة المدنية الى قسمين: الاول، علم الاخلاق، ويبحث في نزعات البشر وسلوكهم، والثاني، علم السياسة، ويختص ببحث واجباتهم المدنية، وحلقة الوصل بين هذين القسمين الرئيسيين للفلسفة، هي الانسان، لأن الانسان بقدر ما هو نتاج الطبيعة، هو ايضا مادة الدولة وصانعها على حد السواء. واستناداً لهذه الصلة بين موضوعات الفلسفة (الجسم الطبيعي، والجسم الانساني، والجسم الاصطناعي المركب والمسمى بالدولة)، من جهة، وانسجاماً مع اتجاهه المادي الميكانيكي، من جهة اخرى، اعتقد بإمكانية دراسة هذه الاقسام بطريقة استدلالية، عن طريق استنتاج تصوره عن الانسان والطبيعة، واستنتاج تصوره عن الدولة من تصوره عن الانسان واستنتاج المبادئ السيكولوجية التي تتحكم بسلوكه وحركات عقله، من مبادئ الفلسفة الطبيعية، وذلك من خلال دراسة الانسان وتكوينه بوصفه جزءاً من الطبيعة، يخضع كأي جسم آخر لنفس المبادئ والقوانين الميكانيكية التي تتحكم بحركات

الجسم المادية.^{٢١} ووجد إن مصدر كل معرفة انسانية تتم من خلال المعاني (الأفكار) وان الاحساس مصدرها الوحيد والاحساس تنشأ نتيجة ضغط موضوع خارجي على عضو الحس فتتولد حركة تستمر الى الدماغ او القلب، فتستجيب لها.^{٢٢} وبهذا يرفض وجود أفكار فطرية، ويستشيد بتجربة النوم الذي غالبا ما يكون بدون احلام لايفكرون وهذا يعني عدم وجود ثمة أفكار في ذلك الوقت، أي إن الأفكار غير فطرية لان ما هو فطري يكون ماثلا دوما للعيان وعلى هذا النحو تكون حواسنا الخارجية مصدر أفكارنا واصل معرفتنا ومن هذا المنطلق رفض المبدأ الديكارتي ((انا افكر، اذن، انا موجود)) القائم على الأصل الفطري للأفكار.^{٢٣} ووجد إن كل ماهو موجود فهو جسماني خاصيته الامتداد والحركة اللذان يثيران في البشر الكيفيات المحسوسة. وبهذا فسر سائر العمليات العقلية على أساس مادي ويقول "ان اصل الحركة هو الحس، وخارج الاحساس ليس هناك اية فكرة، والعلل الحسية خارجة عن الانسان، ولكن تبعث في الانسان عن طريق اللمس، والشم، والرؤية والسمع، وكذلك عن طريق الاعصاب، فالواقع هو الذي يفرض الاحساس والحركة. ودور العلم هو معرفة الحركة باعتبارها البداية في كل شيء".^{٢٤} واعتبر العالم الطبيعي آلة وآلية، والانسان لا يخرج عن النظام الطبيعي وهذا يفسر نزعه المادية، لانه جزء من هذا العالم ولا بد ان يخضع لقانون الحركة التي يخضع لها الكون، لذا يتحرك نحو الاشياء الخارجية التي ترضي رغباته واهوائه، كما يبتعد عن الاشياء التي لا تتفق ورغباته وميوله.^{٢٥}

إن من الحركة يولد الاحساس الذي هو مصدر كل العلوم، والاحساس المتعلق بجميع التوجهات، سواء بالرغبة في شيء أو ضده، لذا فالانسان خاضع لاهوائه وعواطفه الطبيعية، التي تقود دائما الى حب السيطرة، لذا يعتبر آلة طبيعية ومن خلال اجتماعه مع غيره من البشر يؤسسون الدولة كآلة اصطناعية ذات بأس

^{٢١} نيل عبدالحميد، المصدر السابق، ص ٦٨-٧٠ .

^{٢٢} عبدالرحمن بدوي، المصدر السابق، ص ٥٥٨ .

^{٢٣} جماعة من الاساتذة السوفييت، موجز تاريخ الفلسفة، ترجمة توفيق سلوم، دار الفارابي، بيروت، ١٩٨٩، ص ١٦٨ .

^{٢٤} اسماعيل زروخي، دراسات في الفلسفة السياسية، دار الفجر، القاهرة، (د.ت)، ص ١٩٠ .

^{٢٥} محمد المعز نصر، في النظريات والنظم السياسية، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١، ص ٧٠،

وقوة، مهمتها المحافظة على المنفعة الاولى لجميع الافراد الذين ارتضوا صنع هذه الآلة الحامية. ادرك ان العلوم الطبيعية تبحث في الحركات الحادثة في ذرات الاجسام، بينما يبحث علم السياسة في الحركات الحادثة في نفوس الناس والباعثة على افعالهم، لهذا ادرك الفرق بين الظواهر الطبيعية الميكانيكية، والظاهرة الإنسانية، فالأولى: لا تخضع للقياس لانها تقع بالفعل من بين الظواهر الممكنة الوقوع، ومن ثم يكون مبدأ علم الطبيعة هو تحليل تلك الظواهر الواقعة. اما مبدأ علم السياسة والإنسان هو تحليل الميول والانفعالات، وهي لا تستنبط مما يسبق، بل تدرك في النفس وتوضع كمقدمات جديدة للقياس، لان النفس غير مستقلة عن جسد، وحتى عواطف الإنسان وميوله ووجدانه، فهي تخضع لعملية جسمية مادية متمثلة في الدورة الدموية، حتى وان كانت تلك الحركات النفسية متولدة من مؤثرات خارجية، ولذلك فان رغبات الإنسان تتجه بطبيعتها إلى حفظ حياته.^{٢٦}

لقد اعتقد بان الحركة وجدت مع وجود العالم وما فيه من أجسام واشياء، وعلى الرغم من انه اعتبر المادة والحركة يشكلان أساس كل الظواهر في الوجود، إلا انه استند بالدرجة الأولى، إلى الحركة في تفسير تلك الظواهر، والتغيرات التي تطرأ عليها وزوالها. فالاجسام المادية لا تختلف عن بعضها البعض إلا من حيث اختلاف حركات أجزائها الداخلية، وان كل ما ندركه أو نتحسسه، هو بسبب تلك الحركات الموجودة في أجزاء الاجسام المادية.^{٢٧} لذلك يعتبر الحركة السبب الفاعل لمختلف النشاطات التي تطرأ على جسم الإنسان، بما في ذلك اشكال سلوكه الظاهر وافعاله. من حيث إن الإحساس والتخيل يرجع سبب حدوثهما إلى حركة في أجزاء الأشياء أو الاجسام الخارجية، كذلك فان حركات العقل وما ينتج عنها من مظاهر سلوكية، يرجع سبب حدوثها إلى الاحاسيس والتخيل، لان الحركات الواردة من الجسم الخارجي لا يقتصر تأثيرها على الدماغ فحسب (تكوين الصورة الذهنية)، بل انها تنتقل إلى القلب وتسبب نوعاً آخر من الاحاسيس يتصل بانفعالات الإنسان، وبالتالي افعاله الظاهرة. ويرى هوبز إن القلب هو اصل ومنشأ الحياة ومركز الحركة الحيوية، سواء عمل على زيادة سرعتها أو ابطائها. فعندما يعمل على

^{٢٦} اسماعيل زروحي، المصدر السابق، ص ١٩١ .

^{٢٧} ارنست بلوخ، فلسفة عصر النهضة، ترجمة الياس مرقص، دار الحقيقة، بيروت، ١٩٨٠، ص ١٣٥ .

زيادة سرعتها، تدعى (باللذة)، اما حين يعمل على عرقلة الحركة الحيوية وابطائها تدعى (بالآلم). ووجد ان التأثير الذي يحدث في الدماغ سببه حركة الجسيمات المادية في الدماغ، وتعزى إليها أفكارنا وتصوراتنا عن الأشياء. كذلك فان التأثير الفعلي الذي يحدث في القلب هو أيضاً حركة، وان اللذة والآلم هي الإحساس بتلك الحركة، وتمثل كل من اللذة والآلم (الجهد) الحقيقي الأول الذي تبدأ به الحركة الإرادية، من حيث إن ذات الحركة التي ينجم عنها الإحساس باللذة والآلم، يمكن إن ينجم عنها في الوقت ذاته نوعان من الاستجابة، أي انها تكون بمثابة حث، اما على الاقتراب من الشيء الملذ، أو الابتعاد عن الشيء المؤلم. وبالتالي حين يتجه الجهد الأول نحو الشيء الذي سببه فيسمى (الرغبة)، اما حين يبتعد عن ذلك الشيء فيسمى (النفور). هذه العملية المتصلة يسميها بالتفكير (التروي). والرغبة أو النفور الأخير المرتبط بإتيان الفعل وتفاديه، يسميه الإرادة. وكما إن الرغبة هي بداية الحركة الإرادية نحو شيء ملذ وسار، كذلك إن الحصول عليه هو الهدف وغاية تلك الحركة، وعندما يتوصل الإنسان إلى تلك الغاية، فان البهجة التي يستشعرها تسمى (التمتع Fruition) والتي تمثل الحركة الإرادية.^{٢٨}

ويتبين لنا من ذلك ان الحياة عند هوبز هي الحركة، عند الإنسان هي حركة أطراف، والإنسان نفسه عبارة عن آلة مادية ذاتية الحركة، وتكون أجزاؤها، القلب (النابض)، والأعصاب هي الخيوط والأسلاك والدواليب هي المفاصل، وتتضافر هذه الأجزاء كلها في مد سائر الأجزاء الأخرى بالحركة. فضلا عن إن حركة الإنسان، باعتباره جسما ماديا تخضع للقوانين الميكانيكية التي تسري على سائر الموجودات في الكون، ويمكن تفسير مختلف نشاطاته ومظاهر سلوكه في حدود هذه القوانين، لان هذه النشاطات سواء كانت جسمية ام ذهنية، هي مظاهر لحركة أجسام مادية دقيقة (في أعضاء جسم الإنسان) تخضع لمبدأ السببية ومبدأ القصور الذاتي، وتكون حركتها كرد فعل على مؤثرات وحركات صادرة عن الأشياء والأجسام المادية في العالم الخارجي. وبذلك انعكس الاتجاه المادي الميكانيكي على تصورات هوبز ومفاهيمه الأخلاقية، من حيث تصوره للبشر على أنهم أشبه بالآلات المادية ذاتية الحركة، وتتماثل في تكوينها وتتساوى في حاجاتها

^{٢٨} توماس هوبز، المصدر السابق، ص ٦١ .

الضرورية إلى استمرار حركتها الحيوية. هذا التصور أدى به إلى اعتبار إن جميع البشر متساوين في الحقوق مادام أنهم متساوون في حاجاتهم الضرورية. كما انه اخذ بمبدأ القصور الذاتي، الذي يقضي باستمرار الجسم دون استمرار تأثير القوة الخارجية عليه، قد مكنه من اعتبار الغاية الأخلاقية التي تحرك الانسان تدعوه إلى الفعل تتبع من داخل الانسان نفسه، ولا حاجة إن تفرض عليه من الخارج. وبالتالي فان كل القيم والحقوق والالتزامات الأخلاقية نابعة من قدرات البشر وحاجاتهم المتساوية.^{٢٩}

كما إن تصوره للبشر بانهم أشبه بالآلات المادية ذاتية الحركة، قد اثر على نظرتة إلى الدوافع والبواعث، من حيث تفسيره لدوافع الانسان تفسيراً ميكانيكياً، وردّها إلى عدد ضئيل من مشاعر الرغبة والنفور، وربط دوافع الانسان على الفعل، بالتأثيرات أو التغييرات التي تصيب الجسم، كل ذلك أدت به إلى اعتبار كل دوافع الانسان هي دوافع أنانية وذاتية، وقد انعكس ذلك على نظريته من حيث اعتباره كل أفعال الانسان تصدر عن الانانية، كما إن كل القيم التي تقاس بها الطبيعة الخيرة للأشياء والشريرة، هي قيم ذاتية، نسبية، تختلف من انسان إلى آخر. فضلاً عن إن القيم والمعايير والقوانين الأخلاقية، لن يكون لها تأثير في إلزام الانسان بمراعاتها والتقيد بها، طالما إن خرقها لن يؤدي إلى حدوث تأثيرات جسمية ضارة أو مؤلمة. فما دام الانسان يسعى أولاً إلى ضمان استمرار حركته الحيوية، وبالعكس فانه عندما يدرك إن فعلاً معيناً يمكن إن يسبب له إثمًا أو عرقلة حركته الحيوية، فانه سوف يتجنبه، لا بسبب إن ذلك الفعل يمثل شراً أو يخالف القوانين الأخلاقية، ولكن بدافع نفوره، وسوف يتجلى ذلك في وصف هوبز لما يكون عليه حال البشر في حالة الطبيعة، حيث تكون القوة والحيلة، هما الفضيلتان الرئيستان في عرف البشر، وتنعدم مفاهيم الصواب والخطأ، والعدل والظلم.^{٣٠}

وهنا يمكننا القول إن تأثير فكرة (الحركة) على نظرة هوبز إلى الإنسان ونشاطاته وانفعالاته، يشمل أيضاً نظراته إلى المجتمع وطبيعة الإنسان وعلاقاته. فإذا الطبيعة جعلت الإنسان أنانياً، لا يهمله سوى ضمان استمرار وزيادة حركته

^{٢٩} الموسوعة الفلسفية المختصرة، ترجمة فؤاد كامل و آخرون، مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٨٣، ص ٥٠٤ .

^{٣٠} توماس هوبز، المصدر السابق، ص ١٣٨ .

الحيوية ويستجيب للأشياء بدافع الرغبة والنفور، وإذا كان العالم مليء بأشكال متجددة ومتنوعة من الأشياء التي يمكن إن تكون هدفا لرغبته ونفوره. فان حياته تصبح والحالة هذه، عبارة عن نشاط متصل وحركة مستمرة، كما إن السبيل الوحيد لبلوغ السعادة يكون من خلال النجاح المتصل في إحراز ما يرغب فيه الإنسان. وبالمقابل إن الإنسان لا يعيش بمفرده، بل يشاركه أناس آخرون يسعون هم أيضاً لنفس الغاية، وان اشتراكهم في السعي إلى تحقيق هذه الغاية يمكن إن يدفعهم إلى الرغبة في الاستحواذ أو الحصول على أشياء معينة بالذات، في الوقت الذي لا يتوافر ذلك الشيء بالقدر الذي يكفي لإشباع حاجاتهم جميعاً، فان ذلك يؤدي إلى عجز كل فرد عن ضمان ما يساعد استمرار الحركة، أي (استمرار الحياة). وسوف يؤدي بهم ذلك إلى اللجوء إلى استخدام وسيلة فعالة تمكنهم من تذليل الصعوبات التي تعترضهم. وتصبح القوة وبكل أشكالها، الوسيلة الفعالة والحاسمة التي يلجأ إليها الإنسان في سعيه لتحقيق غاياته، وتتحول حياتهم إلى السعي من أجل القوة. وبما إن القوة لا تكون حكراً على احد، بل انها متيسرة لكل من ينشدها. فان السعي من أجلها يتحول إلى تنافس ضار، وتصبح الحياة أشبه بسباق وتنافس بهدف الفوز بالأسبقية، واستبعاد أي احتمال للفشل، لان الفشل يعني الموت. هذه هي الصورة التي رسمها هوبز للمجتمع، ولحياة الإنسان في ظله. فالمجتمع لا يعدو عن كونه مجموعة من الأفراد في سباق طويل، يستغرق الحياة كلها، ويتعين على كل فرد خلاله إن يواصل الحركة بكل طاقاته وتخطي سائر منافسيه، لان الفوز والسعادة لا يتحققان إلا في استمرار تخطي المنافسين. يتبين من ذلك، الصلة الوثيقة بين فلسفته الطبيعية وفلسفته السياسية. هذه الصلة التي قامت على أساس التأثير الواضح الذي تركته أفكاره الأساسية لفلسفته الطبيعية، على فلسفته السياسية، وتتجلى في محاولته لتعميم هذه الأفكار وتطبيقها على الإنسان، ونشاطاته وانفعالاته، والتي بدورها تعتبر الأساس الفلسفي العام لنظريته.

المبحث الثاني

فلسفته السياسية وتحليل الحكم

وجد هوبز كمعاصريه ببيكون وديكارت إن المنهج هو مفتاح الوصول إلى المعرفة. كما إن هناك حقيقة تحكم فكره السياسي، تتلخص في إن الصياغات الفكرية التي توصل إليها هي نتاج حالة الخوف التي خضع لها.^{٣١} ارتكزت فلسفته العقلانية على ثقافة علمية يقينية، واعتبر السياسة كعلم، يجب تركيزه على المفاهيم العادلة وعلى التعاريف الدقيقة. وناوت فلسفته السياسية الارسطية عندما رفضت الافكار الفطرية الطبيعية، واكد على اهمية التعاريف والاشارات واللغة بشكل خاص معتبرا اياها ركنا اساسيا لبناء دولة ومجتمع وانشاء عقود الاتفاق والسلام. ورفض اللجوء الى ما هو فوق الطبيعي، وحارب القوى الخفية والاشباح في كتاباته، ويبين الارباح التي يجنيها الكهنوت من مسألة الخوف من الشيطان، ويبين ان القلق البشري هو في اساس الدين بقوله: " ان الخشية من قوة خفية، سواء كانت وهماً من الفكر او تصوراً مأخوذاً عن العادات المقبولة عموماً، هو الدين".^{٣٢}

حاول ان يقيم علاقة وثيقة بين النظرية السياسية والمذهب الحديث، وعمل جاهداً لكي يجعل هذا المذهب من السعة بحيث يفسر على اساس المبادئ العلمية وجميع حقائق الطبيعية بما فيها السلوك البشري الفردي والاجتماعي، كما ان افكاره شكلت منهجاً علمياً سليماً بالمقارنة مع افكار عصره. والحقيقة هي انه كان لديه شيء اقل ما يمكن ووصفه بأنه علم سياسة، وهو شيء لا يتجزأ من فكرته عن العالم الطبيعي واورده بوضوح خارق العادة. ولهذا السبب افاد المفكرين الذين حاولوا تفنيده، ان فلسفته توضح قول ببيكون: " يخرج الصواب من الخطأ بأسهل مما يخرج عن الاضطراب".^{٣٣}

^{٣١} عبدالرضا حسين الطعان، تاريخ الفكر السياسي الحديث، دار الحكمة، بغداد، ١٩٩٠، ص ١٠٧.

^{٣٢} جان توشار، تاريخ الفكر السياسي، ترجمة علي مقلد، الدار العالمية، بيروت، ١٩٨٣، ص ٢٦٠.

^{٣٣} جورج سباين، تطور الفكر السياسي، ج ٣، ترجمة راشد البراوي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١، ص ٦٢٠.

المطلب الأول

فلسفته السياسية

لقد استعان هوبز في فلسفته السياسية بالمعاني الرائجة في عصره، مثل: المساواة، القانون الطبيعي، الحقوق الطبيعية للانسان، العقد الاجتماعي، السيادة، العدالة،... الخ. ويعالج هذه المعاني على نحو يختلف كثيراً عن معالجة فلاسفة السياسة السابقين عليه لها مثل افلاطون وارسطو وتوما الاكويني وجان بودان وكروشيوس وغيرهم.

أولاً: حالة الطبيعة

يتميز الانسان عن غيره من المخلوقات بعقله الذي هو اداة للتريج بين النتائج، وبالرغبة في الكشف عن الحقائق (لماذا وكيف؟)، وبالدين الذي هو وليد الرغبة في التعرف على سبب الاسباب كلها، عن ذلك السبب الاول والابدي الا وهو، الجهل بالمستقبل والخوف من المجهول.^{٣٤}

وجد ان العالم الطبيعي هو نظام آلي تحكمه الحركة، وان كل العمليات الطبيعية هي ظاهرة معقدة للحركة التي تخضع لها الطبيعة. وبذلك فان المجتمع نظاماً آلياً اساسه الحركة، وكذلك الدولة، فهي في نظره انسان آلي اساسه الحركة المتمثلة يتوجه الانسان نحو الانسان عن طريق اللغة وما يترتب على ذلك من فعل ورد فعل وهما نوعان بدائيان من الاحساس (الرغبة والنفور)، وان موضوع الرغبة هي الخير، في حين ان موضوع النفور هو الشر، والشر الاعظم هو الموت. ان الرغبة تتمثل بالسعي وراء ما يلائم العمليات الحيوية. فالقاعدة التي تحكم السلوك هي ان الجسم الحي مدفوع بالغريزة الى المحافظة على حيويته او زيادتها، اي ان الرغبة تتمثل بالمحافظة على الذات، وهذا يعني استمرار الوجود

^{٣٤} محمد طه بدوي، امهات الافكار السياسية الحديث وصدائها في نظم الحكم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٨، ص ٥٠.

البيولوجي الفردي، وان الخير هو ما يؤدي الى هذه الغاية، والشر هو الاساس (السبب) في تحقيق هذه الرغبة (المحافظة على الذات).^{٣٥}

أن الرغبة في الأمن الذي بموجبه تتم المحافظة على الذات لا يمكن فصلها عن الوسيلة التي تتحقق بموجبها، الا وهي القوة. وكتب هوبز قائلاً: "اني اجعل من رغبة دائمة لا تستقر، في القوة بعد القوة. وهي رغبة لا تهدأ ولا تتوقف الا بالموت، ميلا عاماً لدى البشر جميعاً. وليس السبب في هذا دائماً ان الانسان يأمل في قدر من السرور اكثر مما بلغة، او انه لا يمكن ان يقنع بسلطة اكثر اعتدالاً: ولكن لانه لا يستطيع ضمان ما يملكه من القوة ووسائل المعيشة الطيبة الا بالاستحواذ على المزيد منها"^{٣٦}. من هذا المنطلق يحاول هوبز ان يرسم صورة لحالة الطبيعة، وان الانسان تحركه الاعتبارات الذاتية المتعلقة بأمنه وقوته وسيكون الانسان منافساً للانسان الاخر، ويجهد كل واحد من اجل تحطيم الاخر من اجل الحفاظ على ذاته. والنتيجة التي تترتب على ذلك هي، الحرب الدائمة بين (الفرد والفرد) وحرب بين (الجميع ضد الجميع)، انها الحرب ليس في معنى حدوث القتال وحده، وانما هي الرغبة الملحة والارادة الثابتة في القتال، وهذا يعني عدم وجود السلام، وهناك الخوف الدائم من خطر الموت والحياة ستكون فقيرة وقصيرة. وفي حالة كهذه، ليس من شيء يعتبر ظالم او عادل، حيث لا توجد سلطة ولا قانون، (وحيث لا قانون لا ظلم)، ولا وجود للملكية، لا وجود لما هو لي ولما هو لك (وانما يختص لكل فرد بكل ما يستطيع ان يحوزه وطالما هو قادر على الاحتفاظ به) تلك هي حالة الطبيعة. وهذه الحياة لا بد ان يهجرها الانسان والا تعرض للفناء، والانسان يملك مقومات الخروج من حالة البؤس والشقاء والخوف هذه، فبعقله السليم الذي يختار من بين النتائج انفعها وفضلها له. لقد ادرك الجميع انه لا بد من شيء عام يزود بسلطة قادرة على تحطيم كل مقاومة فردية، انسان عام (اصطناعي).^{٣٧} ويمكننا القول ان حالة الطبيعة لدى هوبز تعبير عن الواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي لبلده وعصره في الفترة. والتي تسببت في

^{٣٥} عبد الرضا الطعان، المصدر السابق، ص ١٢٠.

^{٣٦} توماس هوبز، المصدر السابق، ص ١٠٥.

^{٣٧} محمد طه بدوي، المصدر السابق، ص ٥١.

هاجس الخوف لديه. فضلاً عن انه وضع (الحركة) التي تحكم الطبقة البرجوازية في مجتمعه، ليجعل من واقعهما الفعلي مبرراً لوجود السلطة المطلقة. اذ ان البرجوازية الانكليزية في عصره، تركت النزعة الميركنتيلية وراءها وتحولت باتجاه النزعة الليبرالية والتي تقوم على المنافسة التي تتحكم فيها المصالح الفردية بالدرجة الاساسية، وهذه المنافسة تتخذ شكل الاحتراب الاقتصادي ما بين الافراد، ويكون فيها البقاء لمن هو اقوى اقتصاديا ويمكن ان ينطبق ذلك على المستوى السياسي ايضا. لذلك اراد من السلطة الملكية المطلقة ان تكون الاداة الاساسية في ضمان توازن المصالح، في اطار حالة المنافسة هذه.

ثانياً: قوانين الطبيعة

تطرق هوبز إلى مفهوم حق الطبيعة وقوانين الطبيعة، لكن هذه المفاهيم ليس لها نفس المدلول عند قياسها لما موجود عند منظري الحق الطبيعي. فحق الطبيعة. يمت بصلة الى غريزة البقاء. ويعرفه بأنه "حرية كل فرد في استخدام قدرته الذاتية، وكما يشاء، ومن اجل حفظ حياته الخاصة"، اما القانون الطبيعي فهو حكمة او قاعدة عامة مكتشفة من قبل العقل، وهي من جهة تمنع القيام بكل ما يمكن ان يقضي على الحياة، ومن جهة اخرى، عدم القيام بكل ما يعتقد انه يحفظ الحياة بصورة افضل.^{٣٨} ان على الانسان ان يخرج من حالة الطبيعة التي تم وصفها، وان امكانية الخروج يملكها الانسان، وهي قائمة جزئياً في اهوائه، وجزئياً في عقله. فبعض اهوائه تجعله يميل نحو السلام. اما العقل فانه يوجي له بينود السلام المناسبة ليستطيع من خلالها الاتفاق مع الاخرين. وهذه البنود السلمية والاحكام العقلية، يسميها بالقوانين الطبيعية. ويقول " لا تفعل للغير ما لا تريد ان يفعله الغير لك ". او بعبارة اخرى "عامل الناس كما تحب ان يعاملوك".^{٣٩}

وبهذا يرى ان قانون الطبيعة مجموعة من قواعد يعمل وفقها كائن بشري عاقل لتحقيق منفعة لنفسه من خلال وعيه لجميع الظروف التي يعمل في ظلها، ولا يميل به تماماً للانفعال باتجاه اهوائه. ولما يفترض ان الناس بوجه عام يتصرفون

^{٣٨} جان توشار، المصدر السابق، ص ٢٦١ .

^{٣٩} جان جاك شفالبييه، المؤلفات السياسية الكبرى، ترجمة الياس مرقص، دار الحقيقة، بيروت، ١٩٨٩، ص ٦٢ .

بهذه الطريقة، فإن قوانين الطبيعة تقرر ظروفاً افتراضية على اساسها تسمح سمات البشر الاساسية بإقامة حكومة مستقرة. انها لا تقرر قيما، ولكنها تحدد اسباب ومبررات ما يمكن اصفاء قيمة عليه في المذاهب القانونية والاخلاقية.^{٤٠}

يقول ان ثمة مبدئين في الطبيعة البشرية، هما، الرغبة والعقل. فالعقل قوة تنظيمية او بعد نظر يصبح به السعي وراء الامن اكثر فاعلية. اذن خامة الطبيعة البشرية، والتي يجب بناء مجتمع منها، تتكون من عنصرين متعارضين: الرغبة البدائية، النفور البدائي، اللذين تنشأ منهما جميع البواعث والانفعالات، والعقل الذي بواسطته يمكن توجيه الفعل توجيها ذكيا نحو غاية محافظة على الذات. وعلى قوة العقل التنظيمية هذه، يتوقف الانتقال من حالة الوحشية والعزلة، الى حالة الحضارة والاجتماع. وهذا الانتقال يتم وفقا لقوانين الطبيعة ويقول " قانون الطبيعة... هو ما يمليه العقل السليم الذي يعلمنا الاشياء التي يجب عملها، والاشياء التي يجب استبعادها من اجل المحافظة المستمرة على الحياة " و " قانون الطبيعة قاعدة عامة يكتشفها العقل، ليمنع بها المرء من ان يعمل ما فيه دمار حياته".^{٤١} و يقر بوجود تسعة عشر قانوناً طبيعياً. ومسألة المحافظة على الذات تبقى النقطة المركزية في فكره، لكنها مع قوانين الطبيعة ستكتسب صيغة منظمة وتدفع الى التعاون لتكون اكثر فعالية ويؤكد بانه على الانسان ان يكون " راغباً في السلام والدفاع عن النفس حين يكون الاخرين راغبين ايضاً، وان يكون مقتنعا بقدر من الحرية تجاه الاخرين مساوٍ لذلك القدر الذي يسمح به الاخرين تجاهه " وهكذا نرى ان الشرط الرئيس الذي يقوم عليه الأمن هو الثقة المتبادلة، التي تجعل من امكانية التعاون بين الناس ممكنة. لكن هذا الاتفاق سوف لن يتبع ما لم توجد قوة لا تقاوم، قوة مجهزة بالعقاب وقابلة للمشاهدة العيانية وموضع تحسس. ذلك لأنه يقول ان " العقود بدون سيف ليست سوى كلمات"، وهذه القوة هي بلا شك (الدولة)، وان الناس الطبيعيين يقومون بتكوينها عن طريق حلف ارادي يعقد بينهم لتوفير الحماية لانفسهم، والخروج من حالة الطبيعة.^{٤٢}

^{٤٠} جورج سباين، المصدر السابق، ص ٦٢٩ .

^{٤١} توماس هوبز، المصدر السابق، ص ١٣٨ .

^{٤٢} عبد الرضا الطعان، المصدر السابق، ص ١١٧ .

اذن ان اول قوانين الطبيعة: السعي وراء السلام والمحافظة عليه، والثاني: ان يحصل على الامن والدفاع عن النفس من خلال التعاقد مع الاخرين، والثالث: الالتزام بتنفيذ هذا العقد، وهنا لا بد من وجود سلطة ذات سيادة. اما القوانين الاخرى التابعة للقوانين الثلاثة الاولى، تقتضي ممارسة الاخلاص، وعراف الجميل، والحشمة والتأدب، والنزاهة، والانصاف، والاعتراف بالمساواة الطبيعية، وتجنب الوقاحة والكبرياء والعجرفة.^{٤٣} ان ما جعل فلسفته اكثر النظريات السياسية ثورية في عصره، هو تمثيله الكامل لمذهب المنفعة والمذهب الفردي. اذ اعتبر ان السلوك البشري يحدد بناء للمصلحة الذاتية الفردية، لذلك يكون المجتمع وسيلة مؤدية لهذه المصلحة. فسلطات الدولة وسلطة القانون يجب ان يوفرا الامن والحفاظ على الافراد. وليس من سبب لطاعة واحترام السلطة الا مع امكانية المجتمع السياسي توفير المصلحة الذاتية للفرد. وهكذا فان المجتمع السياسي يجب ان يكون قائما على مجموع المصالح الذاتية المستقلة عن بعضها البعض. ولذلك يقال بأن مجتمع هوبز السياسي هو جسم مصطنع، وهو ان افراد البشر يجدون ان مصلحة كل منهم تكمن في التعاون وتبادل الخدمات مع الآخرين لتدعيم فرديته ومنفعته، ويذهب هوبز لاعتبار ان الدولة (وحش)، وما من انسان يحب او يحترم وحشاً الا بقدر ما يوفر للفرد من مصلحة ذاتية.^{٤٤}

ثالثاً: اصل الدولة (العقد الاجتماعي)

من اجل ان يضمن الناس المحافظة على ذواتهم الخاصة، يتحتم عليهم البحث عن السلام، وان يدافعوا عن انفسهم ضد اولئك الذين لا يمكن الحصول على السلام منهم، وتتجه بقية القوانين الطبيعية الى تأسيس شروط السلام. ويتكون المجتمع المدني عن طريق العقد الاجتماعي الذي يلزم فيه كل واحد من الجمهور نفسه، اي عن طريق عقد مع كل واحد مع الآخرين، ان لا يقاوم اوامر ذلك الشخص، او المجلس الذي يعترفون انه صاحب سيادة. ان كل شخص لا يتعاقد الا بقصد ما هو

^{٤٣} توماس هوبز، المصدر السابق، ص ١٥١ .

^{٤٤} مهدي محفوظ، اتجاهات الفكر السياسي في العصر الحديث، المؤسسة الجامعية، بيروت، ٢٠٠٧، ص ٨٠ .

خير بالنسبة له، وفضلا عن ذلك بقصد ضمان حفظ حياته.^{٤٥} فالامر يتعلق بعقود ومواثيق مبرمة بين البشر الطبيعيين فيما بينهم، وذلك لمصلحة طرف ثالث لم يتعهد من جهته، بأي التزام، ويعتبر قانونيا (الشخص الوحيد) الذي يتحد فيه جمهورهم. اي كل واحد سينتقل حقه الكلي والمطلق على كل شيء (للشخص الوحيد) لكي يمتلك هو فقط ارادة مطلقة، وان كل واحد سيخضع مقدماً ارادته ورأيه لارادة ورأي السيد، الذي تم تكوينه بواسطة هذا العقد بين الأفراد، واكد على ان البشر الطبيعيين، يفرض على حريتهم هذه القيود اللازمة للحياة في المجتمع المدني والدولة، بسبب رضوخهم بتوفير وسائل بقائهم وحياتهم بشكل اكثر سعادة. عن طريق تخليص انفسهم من بؤس حالة الحرب التي تنجم عن رغباتهم الطبيعية، وعن عدم وجود (سلطة مرئية) تعمل على دفعهم لتنفيذ اتفاقياتهم. ان السلطة المرئية هي السيف، والمواثيق لا تشكل بدون سيف. ان هؤلاء سينتظرون من السلطة المرئية حماية فعالة لقاء طاعتهم لها. لقد وضع هوبز امام انظار معاصريه العلاقة المتبادلة بين السيد ورعاياه. وان السيد إذا فقد لاي سبب كان قدرته على الحماية، فإن الرعية تعتبر نفسها عملياً في حل من كل واجب بالطاعة والاخلاص له.^{٤٦} انطلق هوبز من مدرسة القانون الطبيعي، وعالج الموضوع بطريقة تغلب عليها النزعة الفردية، فكان يرى ان الدولة المدنية ترتكز على نظرية العقد الارادي الذي ينشأ بين الافراد، ففي نظرة تعتبر الانانية الانسانية في صميم النزعات وهي التي البشر الى التلاقي والاجتماع وليست الحاجة لتبادل الخدمات في المجتمع. وعندما يفتش الانسان عن المجتمع ليعيش فيه فليس بدافع الغريزة وانما بدافع مصلحته الخاصة. وتتولد المجتمعات نتيجة خوف الناس من بعضهم البعض، وليس نتيجة خير عندهم بالتعاون المتبادل، وذلك بسبب حالة الطبيعة التي سبقت تكوين المجتمع المنظم. ويتوصل الى ان الدولة وحدها هي التي تحمي الافراد وتؤمن الحماية لاموالهم واشخاصهم بموجب قوانين، الامر الذي لا يتوافر في الطبيعة. إذن العقد انتج الدولة من اجل تأمين السلام، لذا يتقيد الانسان بواجبات لقاء تأمين حقوقه. لكن هذا الاتفاق بشكله البدائي البسيط لا يكفي لقيام الدولة، بل

^{٤٥} ليوشتراوس وجوزيف كرويس، المصدر السابق، ص ٥٨٢ .

^{٤٦} جان جاك شفالبيه، تاريخ الفكر السياسي، ترجمة محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية، بيروت، ١٩٩١، ص ٣٢٧ .

لابد للبشر ان يتحدوا وان يبتعدوا عن العيش المنعزل، وعليهم ان يتخلوا عن قوتهم، لانهم في ظل الدولة لا يحتاجون اليها. وهكذا تنشأ سلطة الدولة على انقاض سلطة الافراد وقوتهم. وستكون امام عقد يؤدي الى نشوء المجتمعات، وعقد يتخلى فيه البشر عن سلطانهم لمن يولونه السلطة عليهم. لكن هوبز يرى ان هناك عقداً واحداً. فالناس لا يتعاقدون مع الحاكم انما بينهم فقط، ويبقى الحاكم خارج العقد وليس طرفاً فيه، لا يلتزم بأي تعهدات (تأسيس سلطة مطلقة استناداً الى فكرة العقد).^{٤٧} وبعبارة اخرى ان المجتمع لم يقم الاولي ثم صاحب السيادة ثانياً. بل انهما اقيما في آن واحد، ولا يمكن التفريق بينهما. فالمجتمع قبل تعيين صاحب السيادة لم يكن سوى جمهرة من الناس لا نظام عندهم ولا قانون يسري عليهم، وانما تكون فقط حين تعاهد الناس فيما بينهم على ان يختاروا رئيساً اعلى تتمثل فيه ارادتهم وتتوحد رغباتهم. هذه هي نشأة المجتمع المدني والدولة عند هوبز.^{٤٨} ويبدو الوحدة تتحقق عن طريق الرضا، والارادات الكثيرة التي تتفق في موضوع واحد، هو الصالح العام، لا تكفي لأن تربط الناس معاً. لأن المجتمع السياسي(الدولة) يتطلب وحدة حقيقية (اتحاداً). وما يقوله عن شكل العقد المتبادل، هو تنازل الفرد للاغلبية، من حيث اتفاق كل فرد مع الافراد الاخرين على صناعة مجتمع واحد وحكومة واحدة. فأنهم سيتعاونوا على خلق جسم سياسي واحد، للاغلبية فيه حق الفعل. وفي ذلك الاتفاق على صناعة جسم سياسي خاضع لحكومة واحدة يضع الفرد نفسه بمقتضى الالتزام بكل فرد في المجتمع، ويخضع لقرار الاغلبية وما تحدده. لذلك كل من يخرج من حالة الطبيعة داخلها في المجتمع يجب ان يفهم بأنه تنازل عن كل قوته لاهداف وغايات من اجلها اتحد وتوحد في المجتمع مع الاخرين لتشكيل الدولة.^{٤٩}(٤٩)

^{٤٧} مارسيل بريلو وجورج ليسكيه، تاريخ الافكار السياسية، الاهلية للنشر، بيروت، ١٩٩٣، ص ٢٠٧ .

^{٤٨} محمد عبدالمعز نصر، المصدر السابق، ص ٧٢ .

^{٤٩} فريال حسن خليفة، المجتمع المدني عند توماس هوبز وجون لوك، مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠٠٥، ص ٣١ .

المطلب الثاني

تحليل الحكم

أولاً: أشكال الحكم والسيادة

ان اشكال الحكم تعود الى مكنم السيادة. وحسب رأيه، ليس هناك اشكال مشوهة من الحكم، وإنما نفور الناس وكرهم للخضوع لسلطة ما يقودهم إلى وصفها بالطغيان أو حكم الاقلية... الخ، وعندما يحبون سلطة ما يصفونها بالملكية أو الديمقراطية... الخ، لتحديد شكل الحكم يجب البحث عن صاحب السيادة وفي أي نوع من الحكومات يوجد من هو صاحب سيادة، لذا فهو لا يؤمن بوجود حكم مختلط ولا يؤمن بنظام حكم محدود أو مقيد، لان السيادة مطلقة لا تقبل الانقسام أو التجزئة.^{٥٠} لذا يرى ان النظام الملكي هو أصلح الانظمة، لأن كل ما يؤخذ على الملكي قائم في غيره من النظم، وخاصة في الديمقراطية، فلئن كان للملوك مقربون ذوو حظوة، فأن ذوي الحظوة في الديمقراطية اكبر عدداً، واعظم خطراً. فضلاً عما للملكية من مزايا تنفرد بها.^{٥١} لقد ادرك مدى القوة التي يستطيع ان يضيفها على السيادة المطلقة اذا ما اقامها على اساس من العقد. ويرى انه قبل ان يعقد العقد الذي انبثقت عنه الدولة، كان لا بد ان يكون قد وجد شكل من اشكال الهيئة الموسعة لتكون الجهة المؤهلة الوحيدة لتقرير نقل الحقوق الطبيعية، والذي بدلالته فقط كان ينبغي ان ينظر الى القرار الذي اتخذ بأكثرية الاصوات باعتباره التعبير الحاسم عن إرادات الافراد في هذه الهيئة.^{٥٢}

وانطلق من حقيقة قانونية مؤداها، ان الفرد وحده هو الذي يملك الحقوق ويستطيع ان يتصرف بها. ولكن منذ ان يتم انخراط الافراد في المجتمع السياسي (الدولة) فأن حقوقهم سوف تقل اذا لم تختف، ومثله التصرف بها، اذ ان فرداً ما سيعمل بإسم هذا المجتمع كله باعتباره وكيله المفوض او ممثله. واذا لم يوجد مثل

^{٥٠} موسى ابراهيم، المصدر السابق، ص ٩٥ .

^{٥١} محمد طه بدوي، المصدر السابق، ص ٥٥ .

^{٥٢} عبدالرضا الطعان، المصدر السابق، ص ١٢١ .

هذا الوكيل فسوف لن يكون للمجتمع السياسي وجود فعلي، وانما سيكون مجرد جمع في ظله كل واحد يقرر بطريقته الخاصة. لذلك نرى ان هوبز يؤكد بأن المجتمع مجرد خرافة، اذ انه لا يعني الا الحاكم، فاذا لم يكن هناك حاكم، فسوف لن يكون هنالك مجتمع، وهذا يصدق بشكل خاص بالنسبة للدولة. ان هوبز لم يميز ما بين المجتمع والدولة، وان اية تفرقة بينهما مجرد خلط، وهكذا يرى الامر نفسه على اية تفرقة بين الدولة وحكومتها. فاذا لم تكن هناك حكومة ظاهرة فلن تكون هناك دولة ولا مجتمع، وسيكون هناك حشد من الناس، وينتج عن ذلك ايضاً، ان اية تفرقة بين القانون والاخلاق خلط، ذلك ان ليس للمجتمع سوى صوت واحد يتكلم به و ارادة واحدة يستطيع فرضها، تلك هي ارادة الحاكم الذي يجعله مجتمعاً. وهذه النظرية عن الهيئات المتحدة تكمن ايضاً في جذور مذهب الحكم المطلق عند هوبز فعنده ليس ثمة خيار الا بين السلطة المطلقة والفوضى الكاملة، بين حاكم قادر وعدم وجود مجتمع. ذلك انه لا وجود لكيان اجتماعي الا عن طريق السلطات التي ينشئها، وليس لاعضائه حقوق الا بطريق التفويض، ومن ثم يجب ان تتركز في الحاكم كل السلطة الاجتماعية. والقوانين والاخلاق هي ارادته، وسلطانه غير محدود او لا تحد منه سوى قدرته وذلك لسبب هو انه لا وجود لسلطان آخر الا بأذنه. ووضح ايضاً ان السيادة لا تقبل الانقسام والتحويل، ذلك انه اما ان يكون سلطانه معترفاً به وتوجد دولة، او لا يكون معترفاً به وتوجد فوضى. وجميع سلطات الحكم الضرورية كامنة في الحاكم، مثل التشريع واقامة العدل واستخدام القوة وتنظيم هيئات لحكم الادنى مرتبة.^{٥٣}

ثانياً: القانون والحقوق الفردية

يرى هوبز، مهما تكن حقيقة العقد، فان الذي يترتب عليه هو ان صاحب السيادة سيمسك (بسياف العدل) و(سياف الحرب). ولكن في تملكه لهذين السيفين ينبغي وجود صاحب سيادة واحد. انه الذراع التي تضرب والرأس الذي يقرر. ان حق السيف يمنح في الواقع صاحب السيادة القدرة على استخدام القوة التي تحت تصرفه، وذلك طبقاً لرغبته دون ان يقدم حساباً أمام أي احد. وبمقدور من يمسك

^{٥٣} توماس هوبز، المصدر السابق، ص ١٩٣ .

بالسيف ان يقرر متى يشاء استخدام هذه القوة. واذا ما وجد من يقرر الى جانب من ينفذ فانه سيكون من الوهم الكلام عن السيادة. وصاحب لسيادة هو الذي يحدد ما هو لي وما هو لك، ما هو عادل وما هو غير عادل، وما هو شر وما هو خير.^{٤٤} ومن صفات السيادة المطلقة التي يتمتع بها الحاكم، هي القدرة على إصدار القانون ونقضه. فالسيد المطلق هو صاحب السلطة التشريعية ولا يمكن اصدار قانون عند هوبز لا يتعدى اصدار الامر من قبل الحاكم الذي يتمتع بالسيادة المطلقة في الدولة. فالقانون المدني بمعناه الصحيح ليس سوى الامر الذي يصدره صاحب السلطة لتنفيذه من قبل رعاياه. وبذلك لا يكون القانون بالنسبة لكل فرد من افراد الرعية سوى تلك القواعد التي يضعها الحاكم صاحب السيادة ويحدد فيها ما هو خير وعدل فيأمر بها، وما هو شر وظلم فيحظره.^{٤٥}

لقد ميز بين القانون الطبيعي والقانون المدني، فاعتبر الأول هو ما يمليه العقل، اما الثاني فهو الذي تقف وراءه قوة تعمل على تنفيذه. فقانون الطبيعة هو قانون مجازي، اما جوهر القانون المدني هو تضمنه جانب الامر والحقيقة ان السلطة التي تتولى التنفيذ هي التي تجعل الامر ملزما، فالقانون هو قانون من يملك السلطة. اما بالنسبة للعرف، ان استمراره يعود الى اقرار الحاكم ضمنيا به، ولا يصبح له قوة القانون الا اذا امر به صاحب السلطة.^{٤٦} وبهذا الصدد يقول "القانون المدني، والقانون الطبيعي ليسا بصنفين مختلفين، وانما هما بالاحرى، جزءان مختلفان للقانون، جزء مكتوب يدعى قانون مدني، وجزء آخر غير مكتوب يدعى قانون طبيعي. ولكن الحق الطبيعي اي الحرية الطبيعية للانسان من الممكن ان تضيق او تقلل بموجب القانون المدني. بكلمة اخرى ان المشرع لا يملك غاية اخرى الا وضع تقييدات من هذا القبيل بدونها لا يمكن ان يقوم اي سلام. والقانون لم يوضع في العالم لغرض آخر غير تحديد الحرية الطبيعية الخاصة بالافراد، وذلك ليس فقط بأن لا يضر احدهم الاخر، وانما كذلك لضمان تعاونهم فيما بينهم

^{٤٤} عبدالرضا الطعان، المصدر السابق، ص ١٢٦ .

^{٤٥} مهدي محفوظ، المصدر السابق، ص ٨٤ .

^{٤٦} موسى ابراهيم، المصدر السابق، ص ٩٦ .

واتحادهم ضد العدو المشترك".^{٥٧} كما أكد على ان الحقوق الطبيعية قد توارت بتنازل الافراد عنها بموجب العقد الاجتماعي لصالح صاحب السيادة، وبالتالي فإن الحقوق التي يتمتع بها الافراد هي الحقوق التي يقرها صاحب السيادة بارادته، وخارج هذه الارادة لا توجد هناك حقوق يستطيع الافراد التمسك بها. فحق الملكية، وهو من اهم الحقوق المدنية، لا يأتي الا عن الدولة، فقبل ان تنشأ الدولة كان كل شيء يعود الى الجميع، ولكن مع نشوئها تتغير الحال، وان الملكية نشأت مع نشوء الدولة، واصبح لكل واحد ما يمكن التمسك به، ولكن بأسم الدولة وعن طريقها، فالدولة هي التي تؤسس الملكية، وكل اضرار بالدولة هو اضرار بالملكية.^{٥٨}

وأكد هوبز ان تنظيم الملكية مظهر من مظاهر ممارسة السيادة الكاملة من قبل الحاكم، فقبل ان يكون هناك سلطان مشترك وسيادة، لم يكن احد يستطيع ان يتمتع بأي شيء في حوزته بشكل آمن، ذلك لأن كل فرد يتمتع بالحق الطبيعي المساوي لحقوق الاخرين في كل شيء، اما بعد نشوء المجتمع المدني، يصبح من السهل توزيع الاملاك على الافراد بموجب القوانين الصادرة من الحاكم. فالقانون يسمح للفرد ان يعرف ما له من حقوق وان يتمتع ويتصرف بها بلا خوف او قلق.^{٥٩} واكد على وجوب وضع كل العلوم تحت وصايا الدولة. بسبب ما تقتضيه من تسببات عقلانية انسانية، قد تكون صالحة وقد تكون خاطئة، واذا كانت خاطئة تسبب الاضطراب بين افراد الشعب، ولذلك من الضروري ان يوجد من يضع حداً لذلك، كي لا يؤدي الى تهديد السلام العام. ومن هنا يأتي الدور الواسع للدولة في ميدان الثقافة والتربية. إن تنازل لم يشمل الحقوق السياسية فقط، بل شمل الكثير من الحقوق المدنية، كحق الملكية وحرية التفكير، كل ذلك مقابل السلام والدفاع عن النفس. كما اقتنع بان الانسان يتمتع بالحرية في حدود التي لا توجد فيها قوانين، وعليه فالحرية هي (سكوت القانون) على حد تعبيره. غير ان الحرية بهذا المعنى لا وجود لها، وذلك بسبب افتقاد الانسان لحرية الارادة. ولذلك يجب ان لا نندesh من قول هوبز "ان الحرية تتوافق مع ارادة المتوحشين اكثر مما تتوافق مع ارادة

^{٥٧} عبدالرضا الطعان، المصدر السابق، ص ١٢٧ .

^{٥٨} توماس هوبز، المصدر السابق، ص ٢٦٩-٢٧٠ .

^{٥٩} مهدي محفوظ، المصدر السابق، ص ٨٥ .

الناس. ان الارادة، والرغبة، ما هما الا شيء واحد منظور اليه من جوانب مختلفة". ان الحرية في نظره قد تفيد معنى غياب عوائق الحركة. فالمياه تنحدر من التل بالضرورة عندما ينعدم وجود العوائق التي تحول دون هذا الانحدار، في هذه الحالة تتمتع المياه بالحرية. كذلك الحال بالنسبة للانسان فهو يتمتع بالحرية عندما لا يوجد عائق يمنع حركته. ان حالة الطبيعة هي الحالة التي تسبب انعدام الحرية بسبب حالة الاحتراب التي شكلت عائق امام حركة الإنسان. الانتقال الى حالة المجتمع المدني، تقترن بتحقيق الحرية، لانها تقترن وجود المجتمع المدني بوجود الدولة او صاحب السيادة الذي يعمل على ازالة عوائق الحركة بقضائه على الاحتراب عن طريق القوانين التي يضعها ومن هنا تصبح المقولة القائلة بأن القوانين الوضعية هي تعبير عن الحرية، هذا اذا لم تكن اداتها الرئيسية.^{٦٠} ويمكن القول ان هوبز وجد بأن دائرة حرية التصرف قد تضيق مع وجود الدولة باعتبارها نشاطاً خارجياً. اما على مستوى النشاط الداخلي فأنها قد تضيق من اجل تحقيق نموذج اخر من الحرية يتمثل بغياب عوائق الحركة. اما حرية الارادة، اي الحرية بمعناها العام، فهي موضع استهجان عنده، ولهذا السبب وجه اللائمة على الفلاسفة القدامى الذين مجدوا الحرية، وبحسب رأيه، انهم افسدوا الناس وقادوا بهم الى استحسان الاضطرابات باسم الحرية.

ثالثاً: الدين والكنيسة

يرى ان هناك مرضاً خطيراً للغاية، يترجم ضرره العميق بتنافس وتعارض السلطة المدنية او الزمنية، والسلطة الروحية. لان كل فرد من الرعية سيكون لديه سيدان، كل منهما يريد ان تطاع أو امره مثل القوانين. وبهذا وجد إن كلتا السلطتين وجدتا في العالم لكي يخطئ الناس في تحديد سيدهم الشرعي.^{٦١} لقد بات الكتاب المقدس منذ النهضة موضوعاً لفقه اللغة والنقد النصي، اي موضوع معرفة طبيعية، هذا اذا لم يكن قابلاً كلياً للاختزال الى تأكيدات العقل، كما بينت الأزمات الدينية والسياسية كفاية، منذ حركة الإصلاح الديني في اوربا خطر انقسام

^{٦٠} عبدالرضا الطعان، المصدر السابق، ص ١٣٠-١٣٣ .

^{٦١} جان جاك شفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، المصدر السابق، ص ٣٣٤ .

السلطات، هذا الانقسام الذي يولد الفوضى وغياب الأمن والموت. ان المسألة الشائكة في عصر هوبز، هي مسألة تعدد الينابيع. ان ارتجاجات الانسانية، فالاصلاح الديني، والهزات السياسية المرتبطة بها قد حفزت بروز نزاعات محتملة بين الكتاب المقدس، والتراث والعقل والالهام الفردي، وهناك ثمة سؤال يطرح نفسه، حين يكون مقطع توراتي غامضاً، من يفسره؟ فاذا كان في وسع كل واحد ان يفعل ذلك، سنكون ازاء تعدد القراءات وكيف يتم الاختيار في ما بينها؟ هل سيتم بالاستنجد بالعقل؟ او سيتم القرار بأن احدي هذه القراءات أصوب من غيرها؟ او من حق كل واحد (كما يقول هوبز) ان يؤسس بدعته الخاصة، المتحلقة حول تفسيره؟ يقول البعض ان هذه الامكانية الاخيرة تقود بسرعة الى الحرب الاهلية، او على الاقل الفوضى الدائمة. ويرى هوبز، ما ان يعتقد احد المؤمنين ان في وسعه ان يجد في توراته تبريراً لعدم دفع الضرائب المتوجبة عليه، ولعصيان الدولة أو حمل السلاح لبناء دولة اخرى (وان يقنع بذلك قراء آخرين) ما ان يستطيع اقناع نفسه بان خلاصه مرتبط بهذه القراءة، فأن مسألة الينابيع (المصادر) التي نطلع بواسطتها على الكلام الالهي ستؤدي الى مشكلة كبيرة في كل لاهوت وكل سياسة. وبذلك يناقش هوبز ويحاول ايجاد حل معرفي وسياسي لكيفية التوفيق في معرفة موحدة بين المصادر المختلفة التي تزعم كشف كلام لنا، اي تحليل يفضي الى التمييز بين الخطاب المنسوب مباشرة الى الله بالذات، والخطاب الذي يدور حول الله (تعاليم الدين).^{٦٢} وفي هذه المسألة يخصص هوبز فصولاً مطولة من كتابه (الليفيثان) لمناقشتها. حيث تطرق لمناقشة نصوص توراتية، ومسألة النبوة والوحي، والكلام، ليصل الى مملكة المسيح والكنيسة وسلطانها ليصل الى مسألة قانونية سلطة الكنيسة؟ ومن يملك سلطة تفسير الكتاب المقدس؟ ومن له الحق في تحديد قانونه الديني ويستطرد هوبز في عرض المسألة حسب منهجه، ويتسائل "هل الملوك المسيحيون والجمعيات ذات السيادة في في الجمهوريات المسيحية السلطة المطلقة في ارضهم، وهل هم موضوعون تحت سلطان من دون وسيط، او انهم يخضعون لنائب واحد للمسيح اقامته الكنيسة الجامعة لمحاكمتهم، وادانتهم وخلعهم واعدامهم، حسبما يقدر هذا الاخير مفيداً او ضرورياً للخير المشترك؟".

^{٦٢} بيير فرانسوا مورو، المصدر السابق، ص ٨١-٨٤.

وكان جواب هوبز: "ان البابا او اي مجمع او سلطة فوق القوميات" لا يمكنه ان يمتلك حقوقا كهذه من دون حرمان الاسياد الاعلين سلطتهم وتحويلهم بذلك الى مرتبة الرعايا.^{٦٣} الى ان تصل نظرية هوبز بعملية اخضاع الكنيسة للسلطة المدنية الى نهايتها. فالنسبة الى رجل مثله يؤمن بالمادية، تصبح المسائل الروحية وحي من الخيال، لكن هو لا ينكرها ويقول "ذلك انه بخفايا ديننا كما هو الشأن بالنسبة الى اقراص الدواء للمرضى التي اذا ابتلعت بكاملها كانت لها فضيلة الشفاء، ولكنها اذا مضغت فالغالب ان تُلْفَظُ ثانيا دون ان يكون لها تأثير". وعلى ذلك فالكنيسة عنده مؤسسة فحسب، وعلى غرار أية مؤسسة يجب ان يكون لها رأس، والرأس هو الحاكم.^{٦٤} فالكنيسة تتكون من مجموع المسيحيين المؤمنين والمحتملين مع بعضهم البعض في شخص سيد يخضعون له، ويجتمعون نزولا عند اوامره، وبما ان هؤلاء المسيحيين هم الافراد الذين يكونون الدولة، فلا يمكن ان يكون لهم في نفس الوقت سلطة روحية وسلطة زمنية. فالدولة والكنيسة هما شيء واحد، اي جهاز واحد، إرادته هي إرادة الحاكم السيد.^{٦٥}

اذ يرى هوبز، لابد ان يكون لكل مسيحي حق في تفسير القوانين التي يتضمنها الكتاب المقدس، فيفسر تلك القوانين وفق ما يهديه اليه عقله. وستكون نتيجة حتمية لذلك هي ان تتعدد القوانين المسيحية بقدر عدد الذين يدعون المسيحية، وهو شيء يؤدي الى الفوضى. ونظريته تفترض ان حق كل فرد في ذلك التفسير، وهو مظهر من مظاهر الحق المطلق للانسان في حالة الطبيعة، لكنه انتقل مع غيره من الحقوق بمقتضى العقد الى الشخص الاصطناعي (دولة) في شخص صاحب السيادة. وهكذا يصبح صاحب السيادة بمقتضى العقد هو ارادة الدولة و ارادة الكنيسة، وهكذا تنقلب مملكة السماء بفضل العقد الى مملكة مدنية ذات سلطة واحدة هي سلطة صاحب السيادة.^{٦٦} وللاحتفاظ بالسيادة كاملة، يجب ان لا تشارك اية سلطة كانت سيادة الحاكم المطلقة. لذا يجب خضوع الكنيسة وسلطتها

^{٦٣} المصدر نفسه، ص ٩١-٩٧ .

^{٦٤} جورج سباين، المصدر السابق، ص ٦٤٠ .

^{٦٥} مهدي محفوظ، المصدر السابق، ص ٨٥ .

^{٦٦} محمد طه بدوي، المصدر السابق، ص ٦٢ .

للدولة لأنها لا تمتلك (القوة على العقاب على اي شخص لا يؤمن بها، لكن السلطة المدنية لها الحق في العقاب واستخدام القوة، اذا انحرفت الرعية عن القانون)، كما انه يرى ضرورة طاعة الحاكم دون الكنيسة، ان في الخروج عن الحاكم يكون ضرره على جميع الافراد، في حين خروج الشخص عن الكنيسة لا يحدث ضررا على المجموع.^{٦٧}

^{٦٧} اسماعيل زروخي، المصدر السابق، ص ١٩٨ .

الخاتمة

بحث هوبز في ايجاد علاج شافٍ للبشر يتلائم وطبيعتهم، ويتكفل بالقضاء على اسباب الفرقة والانقسام والصراع، وبالتالي يضمن العيش بسلام واطمئنان عن طريق تقديمه لمنهج علمي مبني على برهنة الاشياء ليقنع البشر بأنه السبيل الافضل والوحيد لتحقيق ما يسعون اليه. كانت انطلاقته متأثرة بالوضع العام لعصره الذي تطورت فيه الكثير من العلوم ولاسيما الطبيعية منها، وسيطر فيه مبدأ السببية أو العلية، وكان المبدأ العام الذي انطلق منه هو دمج علم النفس بالسياسة والعلوم الطبيعية، وذلك لمعرفة العلل والاسباب التي تؤدي الى استنباط النتائج والتي بواسطتها يمكننا التنبؤ بما سيحدث من نتائج. لقد كان مادياً، ويرى ان كل ما هو موجود هو مادة، وكل ما يتغير هو حركة، والمبدأ الاول والاساس والنهائي لكل شيء هو المادة والحركة او المادة التي هي في حركة. وحتى العمليات الفعلية هي ايضا حركات في ادماغنا وقلوبنا وسائر اعضائنا. والدولة وكل النظم الانسانية هي تركيبات من حركات وكل حادث يجري في الكون هو حركة. ويرى ان استخدام الانسان لعقله وتفكيره في الرغبات التي سترأده في المستقبل، يتطلب منه معرفة مدى قدرته على تحقيق تلك الرغبات، حيث ان كل تصور للمستقبل هو تصور لقوة قادرة على تحقيق شيء ما، واهم الوسائل التي تمكن الانسان من الحصول على ما يرغب فيه هي القوة. هذه المسألة هي احد الاركان الاساسية في نظريته بخصوص تكوين الدولة وازفاء عليها جانب القوة، من حيث ان قوة الدولة هي التي ستضع حداً وتوقف الرغبة لدى البشر للاستزادة من القوة، كما يمكن الاستفادة من قوة الدولة لتحقيق رغباتهم والاستمرار في حركاتهم الحيوية. اي ان ازفاء الطابع المؤسس ووجود القانون ورمز للسيادة والحاكم الضامن لتحقيق العيش الرغيد، هو الكفيل بالوقوف ضد شرور البشر وانانيتهم واستمرارهم في الحصول على المزيد من القوة. لذلك جاءت مقولته "ان الدولة شر لا بد منه والملكية المطلقة شر لا بد منها". ان فلسفته السياسية بنيان رصين لا يحتمل المقارنة، واضحة المعالم في حججها المنطقية واتساقها والمشاهدة السياسية الواقعية. لانه بحث في الدوافع الفعلية التي تحرك الناس في الحياة المدنية، وتوصل

من خلال اسلوب منهجي الى ان مبدأ المنفعة هو ذلك المحرك الرئيس للبشر. هذه هي كانت فردية هوبز، والتي مثلت العنصر الحديث في عصره من حيث الوضوح الذي تناول فيه مبدأ المنفعة. فبعده بقرنين بدت المصلحة الذاتية في نظر معظم المفكرين دافعا اشد وضوحاً، وبدت المصلحة الذاتية المستتيرة علاجاً اجتماعياً اكثر قابلية للاستخدام في اي شكل من اشكال العمل الجماعي، وسلطة الحاكم المطلقة، كانت المكمل الضروري لفرديته. ان الحاكم والمحكومين كل منهم تحركه مصالحه الخاصة. ليس هناك مكان وسط بين جموع البشر كحشد من الكائنات المنفصلة، وبين الدولة كقوة خارجية تحافظ على تماسكها بصورة معرضة للتهديد، وذلك عن طريق العقوبات التي تكمل الدوافع الفردية. وتختفي كل انواع التجمعات الوسيطة التي تشكل تهديداً لسلطة الدولة. هذه تشكل نظرية طبيعية في عصر شهد تحطم عدد كبير من المؤسسات التقليدية ومؤسسات الحياة الاقتصادية والدينية. وشهد ذلك العصر ظهور دول قوية اصبح نشاطها المميز وضع القوانين وزيادة السلطة والاعتراف بالمصلحة الذاتية على انها الدافع المسيطر في الحياة. كل هذه الامور جعلها هوبز مقدمات لمذهبه وتابعها بمنطق لا يرحم، فكانت المقياس الصحيح لفراسته الفلسفية وعظمته كمفكر سياسي. ان المنفعة التي قدمها من خلال القوانين الطبيعية التي أوردتها، وكل الواجبات الاجتماعية والسياسية، او الالتزامات المستمدة من حق الطبيعة (حق الفرد في المحافظة على ذاته). والى الحد الذي ترى به الليبرالية الحديثة ان كل الالتزامات الاجتماعية والسياسية مستمدة من الحقوق الفردية للانسان، ويتكون في خدمتها. فانه قد ينظر اليه على انه مؤسس الليبرالية الحديثة.

قائمة المصادر:

١. ارنست بلوخ، فلسفة عصر النهضة، ترجمة الياس مرقص، دار الحقيقة، بيروت، ١٩٨٠.
٢. اسماعيل زروخي، دراسات في الفلسفة السياسية، دار الفجر، القاهرة، (د.ت).
٣. بيير فرانسوا مورو، هوبز (فلسفة، علم، دين) ، ت: اسامة الحاج، المؤسسة الجامعية، بيروت، ٢٠٠٧.
٤. توماس هوبز، الليفيathan، ترجمة ديانا حرب وبشرى صعب، دار الفارابي، بيروت، ٢٠١١.
٥. جان توشار، تاريخ الفكر السياسي، ت: على مقلد، دار العالمية، بيروت، ١٩٨٣.
٦. جان جاك شوفالييه، المؤلفات السياسية الكبرى، ت: الياس مرقص، دار الحقيقة، بيروت، ١٩٨٩.
٧. جان جاك شوفالييه، تاريخ الفكر السياسي، ت: محمد صاصيلا، المؤسسة الجامعية، بيروت، ١٩٩١.
٨. جلال يحيى، معالم التاريخ الحديث، منشأة المعارف، الاسكندرية، ١٩٧٦.
٩. جماعة من الاساتذة السوفيت، موجز تاريخ الفلسفة، ترجمة: توفيق سلوم، دار فارابي، بيروت، ١٩٨٩.
١٠. جورج سباين، تطور الفكر السياسي، ج٣، ترجمة راشد البراوي، دار المعارف، مصر، ١٩٧١.
١١. روبرت ر. بالمر، تاريخ العالم الحديث، ج١، ت: محمود حسين الامين، مؤسسة فرانكلين، بغداد-نيويورك، ١٩٦٤.
١٢. عبد الرحيم عبد الرحمن، التاريخ الاوربي الحديث والمعاصر، دار الكتاب الجامعي، ط٣، (بلا)، ١٩٨٦.
١٣. عبد الرضا حسين الطعان، تاريخ الفكر السياسي الحديث، دار الحكمة، بغداد، ١٩٩٠.

- ١٤ . عبد المنعم الحنفي، موسوعة الفلسفة والفلاسفة، ج ٢، ط ٢، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٩.
- ١٥ . عبدالرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، ج ٢، مؤسسة ذو القربي، ايران، ٢٠٠٦.
- ١٦ . فريال حسن خليفة، المجتمع المدني عند توماس هوبز وجون لوك، مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠٠٥.
- ١٧ . ليوشتراوس وجوزيف كروبس، تاريخ الفلسفة السياسية، ج ١، ت: محود سيد احمد، المجلس الاعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥.
- ١٨ . مارسيل بريلو وجورج ليسكييه، تاريخ الافكار السياسية، الاهلية للنشر، بيروت، ١٩٩٣.
- ١٩ . محمد طه بدوي، امهات الافكار السياسية الحديثة وصدائها في نظم الحكم، دار المعارف، مصر، ١٩٥٨.
- ٢٠ . محمد عبد المعز نصر، في النظريات والنظم السياسية، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١.
- ٢١ . محمد محمد صالح، تاريخ اوروبا من عصر النهضة وحتى الثورة الفرنسية ، مطبعة الجاحظ، بغداد، ١٩٨١.
- ٢٢ . مهدي محفوظ اتجاهات الفكر السياسي في العصر الحديث، المؤسسة الجماعية ، بيروت، ط ٣، ٢٠٠٧ .
- ٢٣ . الموسوعة الفلسفية المختصرة، ترجمة فؤاد كامل وآخرون، مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٨٣.
- ٢٤ . موسى ابراهيم، معالم الفكر السياسي الحديث والمعاصر، مؤسسة عز الدين للنشر، بيروت، ١٩٩٤.
- ٢٥ . نبيل عبد الحميد عبدالجبار، توماس هوبز ومذهبه في الاخلاق والسياسة، دار دجلة، عمان، ٢٠٠٧.

Abstract

Europe experienced in the first decades of the seventeenth century, a gradual process of liberalization of political philosophy from the link theology, and imparted the secular character of intellectual interests. The idea times normal again, an idea hypothetical objective confirmation of the freedom and equality of individuals and the return of power to the origin of my people, and has taken this idea two directions, the direction optimistic, which stems from the era of natural RPR simplicity and virtue, and the man was living in happiness, and that the State spent on these happiness. While the pessimistic direction, is considered to be the life of the jungle is that prevailed in the society and the natural state formation spent on these disadvantages finding Laws governing the lives of individuals. Then came the idea of the contract, which is an extension of the idea of natural age, to explain the phenomenon of the state and its authority. Hobbs came his theory in the social contract, adding a new contribution in political thought. In book (Alliviathan) the body of his political ideas in the state that protects the vulnerable from attack mighty and intermediary organizations. The research hypothesis came that Hobbes bearer individual and Alatalaqah, but defended his absolute rule system based on the theory of natural law and the social contract and not on the theory of divine right. As this study was to clarify the philosophical and intellectual construction of Hobbes, in the interpretation of contract theory and how to set up absolute rule on the basis of the benefit of individuals indicating the logical sequence for his theory that rely on causality and the analytical method and the conclusions reached by the final.